فصـــول

الديـــــــــن وطبُّ الجهاز العصبيِّ

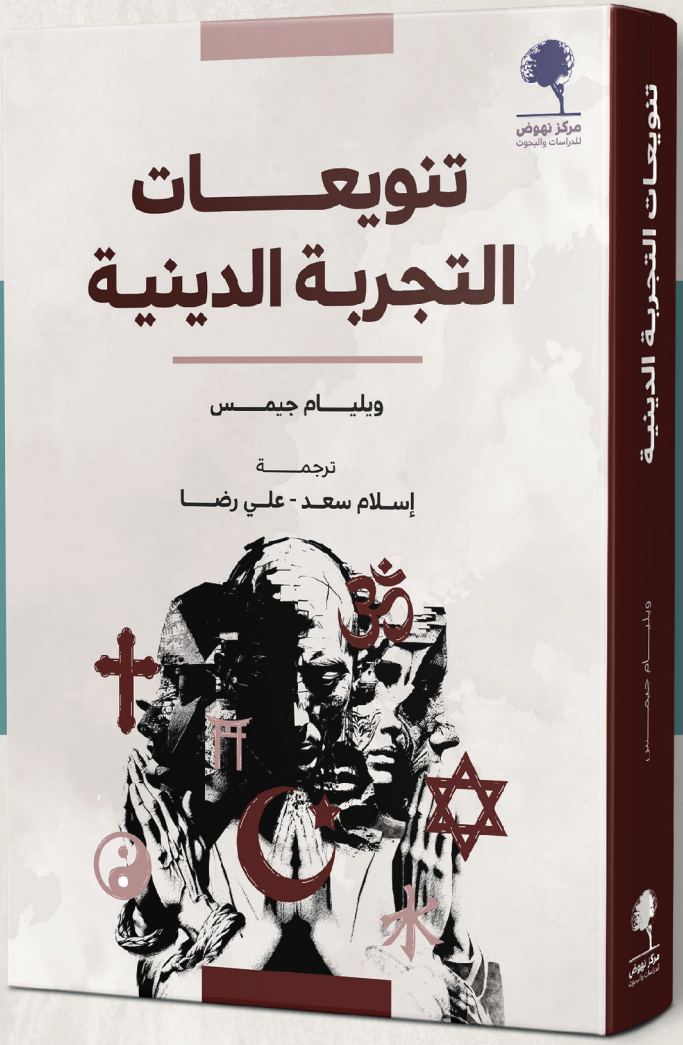

ويليـــام جيمـــس

مركز نهوض
للدراسات والبحوث

جميع الحقوق محفوظة 2026
All rights reserved © 2026

الديـــــــــن
وطبُّ الجهاز العصبيِّ

ويليـــام جيمـــس

بقدرٍ غير يسير من القلق والتوتُّر، آخُذُ مكاني خلف هذا المكتب، وأواجه هذا الجمهور المثقَّف. بالنسبة إلينا، نحن الأمريكيين، فإن خبرة تَلَقِّي العلم على يد العلماء الأوروبيين - سواء بالسماع منهم مباشرةً أو من كتبهم - أمرٌ معتاد جدًّا. ففي جامعتي، جامعة هارفارد، لا يمرُّ شتاءٌ من دون حصادٍ - كبيرًا كان أم صغيرًا - من المحاضرات التي يلقيها ممثِّلو العلم أو الأدب الإسكتلنديون، والإنجليز، والفرنسيون، والألمان في بلدانهم. سواء الذين أقنعناهم ابتداءً بعبور المحيط لكي يحاضروا فينا، أو الذين اغتنمنا فرصة السماع منهم حينما كانوا يزورون بلادنا. ويبدو أن الأمر الطبيعي بالنسبة إلينا إذن، هو أن نستمع بينما يتحدَّث الأوروبيون. أما العادة العكسية، أقصد أن نتحدَّث بينما يستمع لنا الأوروبيون، فلم نكتسبها بعدُ. وعقب قيام أول شخصٍ بهذه المغامرة، فإن ذلك الأمر سيُولِّد فيه حسًّا بالاعتذار؛ لأنه أتى بذلك الفعل المجترئ. يجب أن يكون الأمر كذلك خاصةً حين نكون على أرضٍ مقدَّسة في المخيال الأمريكي مثل أرض إدنبره. إن أمجاد الكرسي الفلسفي لهذه الجامعة كانت مُنْطَبِعَةً على مخيالي بعمقٍ في صباي. فكتاب الأستاذ أليكساندر فريزر (1819 Alexander Fraser-1914) "مقالات في الفلسفة - Essays in Philosophy"، الذي كان صادرًا للتو في ذلك الحين، كان أولَ كتاب فلسفيٍّ أطالعه في حياتي، ولن أنسى إحساس المهابة الممتزج بالتقدير الذي اعتراني عندما قرأتُ شرحَه لدروس السير وليام هاملتون (1788 - 1856 William Hamilton) الواردة في الكتاب. لقد كانت محاضرات هاملتون أول الكتابات الفلسفية التي دَفَعْتُ نفسي لدراستها؛ وبعد ذلك، غمرت نفسي في الكتابات الفلسفية لدوجالد ستيوارت (1753 Dugald Stewart-1828)، وتوماس براون (1778 - 1820 Thomas Brown). إن مشاعر التوقير والإجلال الفتيَّة هذه لا تتقادم أبدًا. وأعترف بأنني حين أجد نفسي المتواضعة، قد رُقيت من فقرها الأصلي لكي تصبح من الحين مسؤولةً رسمية هنا، وتحولت إلى رفيقة عملٍ لهذه الأسماء المرموقة، فإن كلَّ ذلك يحمل في ثناياه حسًّا بأنني في أرض الأحلام بقدر ما أنا في الواقع.

ولكن، مذ حظيتُ بشرف هذا التكليف، أشعر بأن هذا الشرف لن يضمحل أبدًا. إن للعمل في السلك الأكاديمي إلزاماته البطولية أيضًا؛ ولذا أقف هنا دون المزيد من الكلمات الاستهجانية. دعوني فقط أقُل هذا الأمر، بما أن هذا التيار الآن، هنا وفي أبردين Aberdeen، قد بدأ في السير من الغرب إلى الشرق، فإنني أتمنَّى له الاستمرار في ذلك. وبتعاقب السنوات، أتمنَّى أن يُطْلَب الكثير من أبناء وطني ليحاضروا في الجامعات الإسكتلندية، من خلال تبادُل الأماكن مع محاضرين إسكتلنديين في الولايات المتحدة. وأرجو أن تصبح شعوبنا - في كل هذه الأمور العالية الشأن - متساويةً كشعبٍ واحد. وكُلي أمل في تَفَشِّي المزاج الفلسفي الخاص

وكذلـك المـزاج السـياسي الخـاص، المرافـق لأحاديثنـا الإنجليزيـة، أكثر وأكثر كي يترك أثـره في العالَـم.

وفـيما يتعلَّـق بالطريقـة التـي سـأديرُ بهـا هـذه المحـاضرات، فلسـتُ لاهوتيًّـا، ولا باحثًـا متمرسًـا في تاريـخ الأديـان، ولا أنثروبولوجيًّـا. إن علـم النفـس هـو الفـرعُ الوحيـد مـن العلـم الـذي أبـرع فيـه على وجـه الخصـوص. وبالنسـبة إلى عالِـم النفـس، يجـب أن تكـون الميـول الدينيَّـة للإنسـان مـثيرةً للاهـتمام، على الأقـل بنفـس قـدر أيٍّ مـن الوقائـع المتعلِّقـة بطبيعتـه العقليـة. وبالتـالي، يبـدو أن الأمـر الطبيعـي بالنسـبة إليَّ، وباعتبـاري عالِـمَ نفـسٍ، أن أدعوكـم إلى دراسـةٍ وصفيَّـة لهـذه الميـول الدينيَّـة.

إذا كان على هـذا البحـث أن يكـون سـيكولوجيًّا بحـقٍّ، فلا يجـب عليـه الانشـغال بالمؤسسـات الدينيَّـة، وإنمـا يلـزم أن تكـون المشـاعر الدينيَّـة والدوافـع الدينيَّـة هـي موضـوع انشـغاله. ويجـب أن أُقيِّـد نـفسي بالظواهـر الذاتيـة الأكثر تطـورًا، المسـجَّلة في الأدب الـذي كَتَبَـه رجـالٌ مـن ذوي الفصاحـة ويَعـون ذواتهـم على نحـوٍ كامـل، في الأعمال التـي تـدور حـول التَّقْـوَى وفي السِّـير الذاتيـة. وبالرغـم مـن أن الأصـول والمراحـل المبكِّـرة مـن موضـوعٍ مـا تكـون مـثيرةً للاهـتمام، فـإن المـرء حيـنما يسـعى بجـدٍّ وراء دلالتهـا الكاملـة، يتـعيَّن عليـه النظـر إلى أشـكالها الأكثر تطـورًا وكمالًا. وينبنـي على ذلـك أن الوثائـق التـي سـنوليها كامـل عنايتنـا سـتكون خاصـةً بالرجـال الذيـن كانـوا الأبـرع على مسـتوى الحيـاة الدينيَّـة، والقادريـن على أن يمنحونـا وصفًـا واضحًـا يسـهل فهمُـه لأفكارهـم ودوافعهـم. إن هـؤلاء الرجـال - بالطبـع - إمَّـا أن يكونـوا كتَّابًـا معاصريـن نسـبيًّا، وإمَّـا أن يكونـوا مـن الأوائـل الذيـن صـاروا رمـوزًا دينيـة كلاسـيكية. **إن الوثائـق الإنسـانية** Documents Humains [الإنسـان نفسـه بوصفـه وثيقـةً تُـدرس] التـي سـوف نجدهـا أكثر ثـراءً ونفعًـا لا يلـزم أن يُبحَـث عنهـا في مكامـن التبحُّـر في العلـم ومخابئـه؛ إن هـذه الوثائـق يسـهل العثـور عليهـا وكأنهـا توجـد على قارعـة الطريـق المسـلوكة، وهـذا الوضـع الـذي ينتـج عـن طبيعـة مسـألتنا بشـكل طبيعـيٍّ للغايـة، يلائـم أيضًـا - وعلى نحـوٍ ممتـاز - النقـصَ الـذي يعـاني منـه مُحاضِركـم فـيما يتعلَّـق بالتعليـم اللاهـوتي الخـاص. قـد آخُـذُ الاقتباسـات، والجُمَـل، والفقـرات مـن اعترافـاتٍ شـخصية، ومن كُتُـبٍ كانـت توجـد بالفعـل مـع الكـثير منكـم، في وقـتٍ مـا؛ ولكـن هـذا الأمـر لـن يكـون ضـارًّا بالقيمـة التـي تحـوز عليهـا اسـتنتاجاتي. وصحيـحٌ أن قارئًـا وباحثًـا يتمتَّـع بـروح المغامـرة أكثر منـي، وسـيُحاضر هنـا في المسـتقبل، قـد يكتشـف وثائـقَ يعلوهـا الغبـار على أرفـف المكتبـات، سـيكون مـن شـأنها تـوفير تسـلية أكثر إمتاعًـا وإثـارةً لفضـول المُسْـتَمِع مـن تلـك التـي وفرتهـا وثائقـي. لكنـي أشـكُّ في كونـه بـالضرورة، ومـن خلال احتكامـه على الكـثير مـن المـواد الاسـتثنائية بعيـدة المنـال حاليًـا، سـيقترب أكثر مـن جوهـر المسـألة التـي بين أيدينـا.

إن سؤال: ما هي الميول الدينيَّة؟ وسؤال: ما هي دلالتها الفلسفية؟ ينتميان - من وجهة النظر المنطقية - لمستويين مختلفين تمامًا من مستويات طرح الأسئلة؛ ولأن الفشل في إدراك هذه الحقيقة - بشكلٍ واضحٍ - قد يُولِّد الحيرة والالتباس، أرغب في التشديد على هذه النقطة قليلًا قبل الولوج في الوثائق والمواد التي أشرت إليها.

في كتب المنطق الصادرة حديثًا، يُميَّز بين مستويين من التساؤل فيما يتعلَّق بأي شيء. أولًا: ما هي طبيعة هذا الشيء؟ كيف حدث؟ ما هو تكوينه، وأصله، وتاريخه؟ وثانيًا: ما هي أهميته، ومعناه، ودلالته، بما أنه هنا الآن؟ والإجابة على أسئلة المستوى الأول تُعطى في شكل **حُكْم وجوديٍّ** أو افتراض وجوديٍّ. أما الإجابة على أسئلة المستوى الثاني، فتكون **افتراضًا عن القيمة**، أو ما يُسميه الألمان بـ **Werthurtheil** [**حُكم القيمة**] أو ما يمكننا - إن أردنا - أن نُسَمِّيه **حكمًا روحيًّا**. ولا يمكن استنباطُ أيِّ حكمٍ منهما مباشرةً من الآخر. إنهما ينطلقان من انشغالاتٍ فكرية متباينة، ويمكن للعقل أن يؤلِّف بينهما فقط عن طريق إصدار كلِّ حُكمٍ منهما على نحو منفصِلٍ أولًا، ثم جمعهما معًا بعد ذلك.

فيما يتعلَّق بمسألة الأديان، يصبح من السهل - على وجه الخصوص - التمييزُ بين هذين النظامين من التساؤل. فلكل ظاهرة دينية تاريخها الخاصُّ، وأصولها الطبيعية التي تُرَدُّ إليها. وما يُسَمَّى في هذه الأيام بالنقد التاريخي للكتاب المقدَّس، ليس سوى دراسةٍ له من وجهة النظر الوجودية هذه، والتي أُهْمِلَت كثيرًا من قِبَلِ الكنيسة المبكِّرة. تحت أي ظروفٍ حياتية قدَّم كَتَبةُ النصوص المقدَّسة إسهاماتهم المتنوِّعة في الكتاب المقدَّس؟ وماذا كان يدور بالضبط داخل عقولهم المنفردة - على تنوُّعها - عندما بلَّغوا كلماتهم؟ هذه أسئلة متعلِّقة - كما هو واضح - بالحقيقة التاريخية [المنتمية لمستوى التساؤل الأول]، ولا يرى المرء كيف يمكن للإجابة عليها حسم أمر هذا السؤال الإضافي [المنتمي لمستوى التساؤل الثاني] ارتجاليًّا [دون دراسةٍ وفحصٍ]، والذي يظل قائمًا: أي نوع من الفائدة يمكن لكتابٍ مثل هذا - بالطريقة المحددة للغاية التي أتى بها للوجود - أن يحملها لنا بوصفه مرشدًا في الحياة ووحيًا؟ ولكي نجيبَ على هذا السؤال الآخر، يجب أن يكون قارًّا في عقلنا نوعٌ من النظرية العامَّة عن ماهية الخصوصيات في نصٍّ ما، والتي تعطيه قيمة الوحي؛ وهذه النظرية نفسها هي التي ستكون ما أسميته بالحكم الروحي. وبالجمع بين هذا الحُكم وحُكمنا الوجودي، يصبح بإمكاننا بالفعل استنباط حكم روحيٍّ آخر يتعلَّق بقيمة الكتاب المقدَّس. وهكذا، لو كانت نظريتنا عن قيمة-الوحي تؤكِّد على أن أيَّ كتاب، ولكي يحوز قيمة الوحي، يجب أن يكون مكتوبًا على نحو تلقائيٍّ [بإملاء الوحي]، وليس تبعًا لنزواتِ كاتِبه، أو يجب أن يكون خاليًا من أية أخطاء

علمية أو تاريخية، وألَّا يعبِّر عن أهواء وميولٍ محلية أو شخصية؛ فسيتبيَّن أن الكتاب المقدَّس هو - على الأرجح - كتابٌ معلول. لكن، لو كانت النظرية - من جهةٍ أخرى - تسمح بأن يكون الكتاب وحيًا على الرغم من الأخطاء والأهواء والتأليف البشري المتعمَّد، لو أنه كان فقط يمثِّل تسجيلًا صادقًا للخبرات الجُوَّانية لأشخاصٍ ذوي أرواحٍ عظيمة يتصارعون مع أزمات أقدارهم، حينئذٍ سيصبح الحكم على الكتاب المقدَّس أكثر إيجابيةً. فأنتَ إذن ترى أن الحقائق الوجودية نفسها غير كافية لتحديد هذه القيمة، وأن النقَّاد التاريخيين الأبرع في مجالهم لم يخلطوا - بالتالي - المسألة الوجودية بالمسألة الروحية. فبالحقائق التاريخية نفسها التي بين أيديهم، يتبنَّى بعضهم رأيًا عن قيمة الكتاب المقدَّس باعتباره وحيًا، ويتبنَّى البعض الآخر رأيًا مغايرًا، وذلك بناءً على اختلاف الحكم الروحي على الأساس القيمي لكلٍّ منهما.

أورد هذه الملاحظات العامَّة حول هذين النوعين من الحُكم؛ لأن العديد من الأشخاص المتدينين - وربما يكون بعض الحاضرين الآن من ضمنهم - لا يستخدمون هذا التمييز، والذين قد يشعرون - في البداية - بقليلٍ من الفزع من وجهة النظر الوجودية الصِّرفة، التي تعيَّن النظر من خلالها - في القادم من المحاضرات - إلى ظواهر التجربة الدينيَّة. حينما أتعامل مع هذه الظواهر بيولوجيًّا وسيكولوجيًّا كما لو كانت مجرَّد وقائع مثيرة للفضول في تاريخ الفرد، سيظن البعض منكم أن ذلك يمثِّل تدنيًا بمستوى موضوعٍ سامٍ كهذا، وقد يشكِّك البعض في كوني أسعى - عن عمدٍ - إلى تشويه الجانب الديني من الحياة، وسيبقى هذا الشكُّ قائمًا في نفوسهم إلى أن يتسنَّى لي التعبير عن غرضي من كل ذلك بشكلٍ أوضح.

إن مثل هذا الاستنتاج - بالطبع - بعيدٌ كل البُعْد عن نيتي، وبما أن هذا التحامُل المحتمَل من جانبكم سوف يُعرقِل - بشكل جدِّي - التأثيرَ الذي أنشد الوصول إليه، فسأكرِّس كلماتٍ قليلةً إضافية تتعلَّق بهذه النقطة.

لا شكَّ أن أيَّ حياةٍ دينيَّة، يُكرِّس لها المرء حياته بشكل حصري، تجعله - بالفعل - استثنائيًّا وغريبَ الأطوار. لا أتحدث الآن عن المؤمن التقليدي الذي يتَّبع التعاليم الدينيَّة التقليدية في بلده، سواء كانت بوذية أو مسيحية أو محمَّدية. لقد وُضِعَ دينُه له بواسطة الآخرين، ونُقِلَ له من خلال التراث، وحُدِّدَ في أشكالٍ ثابتة من خلال التقليد، وتمَّ الحفاظ عليه من خلال العادة. سنحقِّق قدرًا ضئيلًا من الفائدة إذا درسنا هذه الحياة الدينيَّة غير المباشرة. وعوضًا عن ذلك، يجب علينا البحث عن التجارب الأصلية التي كانت بمثابة النموذج والقدوة لكل هذا الكمِّ من المشاعر الموعز بها والسلوكيات المقلَّدة. يمكننا أن نجد هذه التجارب فقط

في الأشخاص الذين لا يمثِّل الدين لهم عادةً رتيبةً وإنما حُمَّى حادَّة. ولكن هؤلاء الأشخاص "عباقرة" في الشأن الديني، ومثل العديد من العباقرة الآخرين الذين قدَّموا ثمارًا مؤثِّرة بما يكفي لإحياء ذكراهم دومًا في صفحات السِّير الشخصية، غالبًا ما أظهر العباقرة الدينيون أعراض عدم استقرار عصبيٍّ. بل لقد كان القادة الدينيون معرَّضين - أكثر من الأنواع الأخرى من العباقرة - لكشوفاتٍ نفسية غير طبيعية، وكانوا دائمًا على قدرٍ عظيمٍ من الحساسية العاطفية؛ إذ كانوا يحيون حياةً جُوَّانية متضاربة، وعانوا من السوداوية melancholy خلال فترةٍ من حياتهم، ولم يكن يحدُّهم حَدٌّ، وكانوا عرضةً للوساوس والأفكار التي لا تبرح رأسهم لثانية، ومروا كثيرًا بحالات الغشية Trance، وسمعوا أصواتًا، ورأوا رؤى، وأظهروا كلَّ الأعراض الغريبة التي تُصنَّف عادةً على أنها مَرَضِيَّة. وفضلًا عن ذلك، غالبًا ما ساعدت هذه السمات المَرَضِيَّة لمسيرتهم في منحهم سلطتهم الدينيَّة وقدرتهم على التأثير.

إذا سألتني مثالًا ملموسًا على ذلك، فليس هناك مثالٌ أفضل من ذلك الذي يقدِّمه لنا جورج فوكس (1624 George Fox-1691). إن دين "الكويكرز The Quakers"[1] الذي أسَّسه هو شيء يستحيل الإسراف في مدحه. ففي زمنٍ ملؤه الزيف، كان هذا الدينُ دينَ الحقيقة المتجذِّرة في الجُوَّانية الروحانية، ومثَّل عودةً إلى شيءٍ شبيه بحقيقة الإنجيل الأصلية أكثر من أي شيءٍ آخر عرفه الناس في إنجلترا من قبل. وبقدر ما تتطور الطوائف المسيحية في هذه الأيام نحو التحرُّر الفكري، بقدر ما تعود - ببساطة، وفي الجوهر - إلى الموقف الذي تبنَّاه فوكس والكويكرز الأوائل منذ زمنٍ بعيد. لا يمكن لأحدٍ أن يتظاهر - للحظة، فيما يتعلَّق بالحصافة والمقدرة الروحية - بأن عقل فوكس كان واهنًا أو مختلًّا. إن كلَّ الذين قابلوه وجهًا لوجه: من أوليفير كرومويل[2] (Oliver Cromwell 1599 - 1658)، لقضاة الدولة، لحرَّاس السجن؛ بدوا مُقرِّين بقواه الفائقة. لكن، لو نظرنا إليه من جهة حالته العصبية، فقد كان فوكس مريضًا نفسيًّا أو **détraqué** [مضطربًا عقليًّا] بامتياز، من النوع الأكثر تطرُّفًا. وتزخر يومياته بتدويناتٍ من هذا النوع:

---

(١) حركة ذات جذور مسيحية أسسها جورج فوكس في إنجلترا في منتصف القرن السابع عشر الميلادي. اعتبرت المسيح واقعًا حيًّا في الخبرة الشخصية للفرد، وليس فقط في الإنجيل أو تقاليد الكنيسة. يرتكز الإيمان الأساسي في هذه الحركة على إمكان معرفة الله بواسطة كل إنسان، وأن روح الله ستقودنا للحقيقة لو أننا صادقون في الاستماع إلى صوت الله وطاعته في قلوبنا. (المترجمان)

(٢) قائد عسكري وسياسي إنجليزي، كان ينتمي لجانب البرلمانيين في الحرب الأهلية الإنجليزية، وبانتصارهم على الملكيين إبان حكم تشارلز الأول، تحولت إنجلترا إلى جمهورية برلمانية تُعْرَف باسم "اتحاد الكومنولث الإنجليزي"، قبل أن يحلَّ كرومويل البرلمان، ويصبح أول قائدٍ أوحد للجمهورية. لكن بعد وفاته، نجح الملكيون والملك تشارلز الثاني في استعادة السلطة الملكية مرةً أخرى. كان كرومويل شديدَ التديُّن، ومعروفًا بتسامحه تجاه البروتستانت وتعصُّبه ضد الكاثوليك. (المترجمان)

"بينما كنت أسير مع زمرة من الأصدقاء، رفعتُ رأسي، ورأيتُ ثلاث قبابٍ مخروطية أعلى برج كنيسة، وقد اصطدموا بحياتي. سألتهم عن المكان الذي نوجد فيه؟ قالوا: ليشفيلد Lichfield. وفورًا أتتني كلمةُ الربِّ بوجوب ذهابي إلى هناك. ومع اقترابنا من المنزل الذي كنَّا ذاهبين إليه، أخبرت الأصدقاء بأن نسير نحوه، دون أن أقول لهم إلى أين عزمت الذهاب. وبمجرَّد رحيلهم شرعت في السير مبتعدًا، ونظرت بعيني في كل مكانٍ حتى أصبحت على بُعْد ميل من ليشفيلد، حيث كان رعاة الغنم في حقلٍ كبيرٍ يحرسون أغنامهم. ثم أُمرت من الربِّ أن أخلع نعلَيَّ. وقفتُ ساكنًا؛ لأننا كنَّا في الشتاء. لكن كلمة الربِّ كانت كالنار في جسدي. لذا خلعت نعلَيَّ وتركتهما مع رعاة الغنم. وارتعد المساكين مندهشين. ثم سرت قرابة المِيل، وبمجرَّد أن كنت في حيز المدينة، أتتني كلمةُ الربِّ مرةً أخرى، قائلًا: اصرخ، "بئسًا لمدينة ليشفيلد الدموية!". لذلك سرتُ بهمَّة في الشوارع، صارخًا بصوتٍ عالٍ: بئسًا لمدينة ليشفيلد الدموية! ولأن اليوم كان يوم سوقٍ، دلفت إلى السوق، جيئةً وذهابًا في أجزاء عديدة منه، وقمت بعمل وقفات، صارخًا كما حدث من قبل: بئسًا لمدينة ليشفيلد الدموية! ولم يضع أحدٌ يَدَهُ عليَّ. وبينما كنت أسير صارخًا عبر الطرقات، بدا لي وكأن قناةً من الدم تسيل في الشوارع، وبدا السوق وكأنه بِركَةٌ من الدم. وعندما أعلنت ما تحتم عليَّ إعلانه، وشعرت بأنني قد أرحت ضميري وأنهيت مهمَّتي، خرجتُ من المدينة بسلام، وعدتُ لرعاة الغنم ومنحتهم بعض المال، وأخذت حذائي منهم مرةً أخرى. لكن نار الربِّ كانت في قدمَي، وحولي بالكامل، لدرجة أنني لم أهتم بارتداء حذائي مرةً أخرى، ووقفت في حيرةٍ من أمري، هل أرتديهما أم لا، حتى شعرت بالحرية من الربِّ في أن أرتديهما. وهكذا، بعد أن غسلت قدمَيَّ ارتديت حذائي مرةً أخرى. بعد هذا غشاني تفكيرٌ مليٌّ عميقٌ، لأي سببٍ توجَّب إرسالي لأصرخَ في وجه هذه المدينة، وأنعتها بالمدينة الدموية! ربما كان السبب هو أن البرلمان كان يسيطر على السلطة حينًا بينما يسيطر عليها الملك في حينٍ آخر، وأُريق الكثير من الدماء في المدينة بسبب الحرب التي نشبت بينهما، لكن هذا الأمر لم يحدث هنا أكثر مما حدث في أماكن أخرى عديدة. لكنني فهمت بعد ذلك، أنه في عهد الإمبراطور دقلديانوس Diocletian قُتِلَ ألف مسيحي في ليشفيلد. لذا قُدِّر لي الذهاب، دون حذائي، عبر القناة التي سال فيها دمهم، وإلى بِرْكَةِ دمائهم في السوق، لكي أصدح بذكرى دماء هؤلاء الشهداء التي أُريقَت منذ أكثر من ألف سنة، وأن أقف، شاعرًا بالبرودة في شوارعهم. وهكذا أُلهِمت فهم أمر هذه الدماء، وأطعتُ كلمةَ الربِّ".

لإصرارنا على دراسة الظروف الوجودية للدين، لا يمكننا تجاهُل هذه المناحي المَرَضِيَّة

للشخص موضوع الدراسة. إذ يجب علينا وصف هذه المناحي وتسميتها كما لو أنها تجلَّت في رجالٍ غير متدينين. صحيحٌ أننا ننفر بشكل فطريٍّ من رؤية شيءٍ نُكرِّس له عواطفنا وميولنا وهو يُتَناوَل بالعقل كما يُتَناوَل أيُّ غرضٍ آخر. فأول شيء يفعله العقل مع الموضوع الذي يتناوله هو أن يصنِّفه إلى جانب موضوعٍ آخر. لكن أي موضوعٍ يبلغ عندنا قدرًا من الأهمية، ويوقظُ إخلاصَنا وتفانينا، نشعر كما لو أنه يجب أن يكون وحيدَ نوعِهِ sui generis ومتفرِّدًا. من المرجَّح أن سلطعونًا سيملؤه الإحساس بالإهانة الشخصية لو كان له أن يسمعنا ونحن نصنِّفه من دون أية صعوبة أو تبريرٍ باعتباره من فصيلة القشريات، وهكذا ننتهي من أمره ببساطة. سيقول السلطعون لنا: "أنا لستُ هكذا، أنا نفسي، نفسي فقط".

ثاني شيء يفعله الذهن هو أن يُعرِّي الأسباب التي ينشأ عنها الشيء. يقول سبينوزا (Spinoza 1677-1932): "سأُحلِّل أفعال البشر ورغباتهم كما لو كانت مسألة خطوطٍ وأسطح مستوية ومواد صلبة". وفي موضعٍ آخر يبدي ملاحظة مفادها أنه سينظر إلى انفعالاتنا وخصائصها بالعين نفسها التي ينظر من خلالها للأشياء الطبيعية الأخرى؛ وذلك لأن عواقب انفعالاتنا تنبع من طبيعتها بالضرورة نفسها التي يكون بها مجموع زوايا المثلث الثلاث مساويًا لزاويتين قائمتين أمرًا نابعًا من طبيعته. وبشكل مشابه، كتب م. تاين M. Taine، في مقدمة كتابه عن تاريخ الأدب الإنجليزي: "سواء كانت الحقائق معنوية أو مادية، فليس ثمَّة فارق؛ لأنها دومًا تمتلك أسبابًا. هناك أسباب للطموح، والشجاعة، والصدق، كما توجد أسباب للهضم، والحركة العضلية، وحرارة الحيوان. إن الرذيلة والفضيلة منتجاتٌ مثل الزَاج والسكَّر". عندما نقرأ تصريحات العقل هذه، المصمِّمة على أن تعرض الشروط الوجودية لكل شيء على الإطلاق، نشعر - وذلك بعيدًا عن تبرُّمنا ونفاد صبرنا المشروع تجاه الاختيال السخيف نوعًا ما لبرنامج العمل هذا، في ضوء ما يَقْدِر المؤلفون بالفعل على تنفيذه - بأننا مهدَّدون وملغيون فيما يتعلَّق بجذور حياتنا الأكثر عمقًا وخصوصية. فمثل هذه المعرفة القاسية تهدِّد - كما نظن - بإبطال مفعول أسرار روحنا الأساسية؛ التصريح نفسه الذي سيفسر أصولها سيلغي - في الوقت نفسه - أهميتها، ويجعل قيمتها لا تزيد عن قيمة مشتريات البقالة المفيدة التي يتحدث عنها م. تاين M. Taine.

ربما يكون التعبير الأكثر شيوعًا عن هذا الافتراض الذي يرى أن القيمة الروحية تُلغى بالكشف عن أصلها الوضيع، هو الملاحَظ في تلك التعليقات التي غالبًا ما يقولها الأشخاص غير العاطفيين في حقِّ معارفهم العاطفيين. يؤمن ألفريد بالخلود بقوةٍ؛ لأن مِزاجه عاطفيٌّ للغاية. وضمير السيدة فاني Fanny الحيُّ بشكل استثنائيٍّ ليس سوى مسألة أعصابٍ مُثارَة على نحوٍ

مفـرط. وسـوداوية ويليـام William بخصـوص الكـون ناتجـة عـن سـوء الهضـم، فهـو على الأرجـح يعـاني مـن كسـلٍ في الكبـد. وبهجـة إليـزا Eliza حين تكـون في كنيسـتها هـي أحـد أعـراض طبيعتهـا الهسـتيرية. وسـيكون بـيتر Peter أقـلَّ اغتمامًـا حيـال روحـه لـو أنـه مـارس الرياضـة أكثر في الهـواء الطلـق ... إلـخ. مثـال آخـر أكثر تطـوُّرًا على نـوع الاسـتدلال العـقلي نفسـه، هـو الموضـة الشـائعة إلى حـدٍّ بعيـدٍ في هـذه الأيـام بين كتَّـابٍ معيـنين، والمتمثِّلـة في نقـد الانفعـالات الدينيَّـة عبر إظهـار الصلـة بينهـا وبين الحيـاة الجنسـية. إن التَّحـوُّل الدينـي Conversion أزمـةُ بلـوغٍ ومراهقـة. وليـس ذبـول القديـسين وتلفهـم وتفـاني المبشريـن سـوى أمثلـةٍ على غريـزة التضحيـة بالنفـس الأبويَّـة وقـد ضلَّـت طريقهـا. وبالنسـبة إلى راهبـة هسـتيرية، تتـوق للحيـاة الطبيعيـة، ليـس المسـيح سـوى بديـل تخـيُّليٍّ لمحبـوبٍ مـن طبيعـة أكثر بشريـة. إلى آخـر الأمثلـة المشـابهة[3].

(٣) كما هو حال الكثير من الأفكار المنتشرة في الزمن الذي يحيا فيه المرء، تنأى هذه الفكرة عن التصريح العام الدوغمائي، وتُعَبِّر - عوضًا عن ذلك - عن نفسها جزئيًّا وعن طريق التلميح فحسب. ويبدو لي أنه لا يوجد إلا القليل من التَّصوُّرات التي يمكن أن تكون أقلَّ إفادةً من هذا التَّصوُّر الذي يعيد تأويل الدين على أنه جنسانية منحرفة. إن هذا ليذكِّر المرءَ بالتهكُّم الكاثوليكي الشهير، الذي يُستخدم عادةً على نحوٍ فظٍّ، والقائل بأن الإصلاح الديني يمكن أن يُفهَم بأحسن الفهم، بتذكُّر أن منشأه وأصله كان رغبة لوثر في أن يتزوج راهبة؛ فالنتائج دائمًا ما تكون أوسع بكثير من أسبابها المزعومة، وفي الغالب الأعم تكون الأسباب والنتائج متضادة من حيث الطبيعة. صحيحٌ أنه من بين هذا الكمِّ الهائل من الظواهر الدينية، توجد بعض الظواهر ذات الطبيعة العِشْقِيَّة صراحةً. على سبيل المثال، آلهة الجنس والطقوس الفاحشة في الأديان غير التوحيدية، ومشاعر الاتحاد مع المُخلِّص الشاطحة في القليل من المذاهب الصوفية المسيحية. ولكن لماذا لا نصف الدين إذن - وبالطريقة نفسها - بأنه انحرافٌ في الوظيفة الهضمية، ونستدلُّ على ذلك بعبادة باخوس Bacchus [إله الخمر] وسيريس Ceres [إلهة نمو نباتات الطعام] أو من خلال مشاعر النشوة التي تنتاب بعض الرهبان بخصوص تناوُل القربان المقدَّس؟ تكسي اللغة الدينية نفسها بمثل هذه الرموز الفقيرة التي لا يسع حياتنا توفير سواها، وكلما كان العقل مدفوعًا بشدَّة للتعبير الديني يهبّ الجسد كلُّه لمساعدته ويعطي للأقوال معانيَ إضافيةً خفيةً. والحال أن اللغة المستوحاة من الأكل والشرب من المرجَّح أن تكون شائعةً في الكتابات الدينية بنفس قدر شيوع اللغة المستوحاة من الحياة الجنسية فيها، فعلى سبيل المثال: "نجوع ونظمأ [نتوق]" إلى الصلاح والاستقامة؛ "نجد الرَّبَّ حلو المذاق"؛ "نتذوق ونرى أنه خَيِّر". إن عبارة "حليب روحي للأطفال الأمريكيين، مستمَد من ثديَي العهدين القديم والجديد"، هي العنوان الفرعي للكتاب المشهور قديمًا والمعنون بـ"الكتاب التمهيدي لبريطانيا الجديدة New England Primer " [الكتاب المدرسي الأساسي في المستعمرات الأمريكية]، وتطفو الكتابات التعبُّديَّة المسيحية بالفعل في الحليب، مُفكِّرًا فيه، لا من وجهة نظر الأم، وإنما من وجهة نظر الرضيع الشَّرِه
فعلى سبيل المثال، يصف القديس فرانسوا دي سال Saint François de Sales "صلاة الهدوء Orison of Quietude" هكذا: "في هذه الحالة تكون الروح كالرضيع الذي تجعل أمُّه لَبَنَها يقطر في فَمِهِ دون أن يحرِّك شفتيه لتلاطفه بينما لا يزال بين ذراعيها. وهكذا ... يريد ربُّنا أن ترتوي إرادتنا برشف الحليب الذي يصبُّه - جَلَّ جلاله - في أفواهنا، وأن نتلذَّذ بحلاوته من دون أن نعرف حتى أنه يأتي من الرب". ويقول أيضًا: "ولتتأمل في حال الرضيع وهو مُتَّحِد ومُلْتَصِق بثدي أمِّه وهي تُرضعه، وسترى أنه من حينٍ لآخر يضغط نفسه ليقترب أكثر من الثدي بواسطة حركاتٍ فجائية تدفعه إليها لذَّة الرضاعة. وهكذا هو الحال بالنسبة إلى القلب، فبالرغم من أنه يكون في أثناء صلاته مُتَّحِدًا بالربِّ، فإنه كثيرًا ما يحاول الاتِّحاد أكثر بواسطة حركات يطارد في أثنائها الحلاوة الإلهية بشكل أقرب". انظر:
Chemin de la perfection, ch. xxxi; Amour de Dieu, vii. ch. i.
في الواقع، يمكن للمرء أيضًا تفسير الدين باعتباره انحرافًا للوظيفة التَّنَفُّسِيَّة. فالكتاب المقدَّس ممتلئ بلغة المعاناة التَّنَفُّسِيَّة وضيق الصدر: "لا تَصُمَّ أُذُنَيْكَ عن تنهداتي؛ أنيني لا يخفى عليك؛ قلبي يلهث، وخارت قواي؛ بليت عظامي في توجعي الليل كله؛ مثلما تلهث الغزلان توقًا لجداول المياه، تلهث روحي توقًا إليك يا الله". و"نَفَسُ الله في الإنسان God's breath in man" هو عنوان العمل الرئيس للمتصوف الأمريكي الشهير (توماس ليك هاريس Thomas Lake Harris (١٨٢٣ - ١٩٠٦)؛ وفي بلادٍ غير مسيحية، يتكون أساس كل الانضباط الديني من تنظيم عمليتَي الشهيق والزفير.
إن هذه الحجج جيدةٌ بنفس قدر جودة ما يسمعه المرء من حججٍ مؤيدة للنظرية الجنسية [التي تربط الظواهر الدينية بالوظيفة الجنسية]. لكن أنصار هذه الأخيرة سيقولون حينئذ إن حُجتهم الرئيسة لا يوجد ما يضاهيها في أيِّ مكان. سيقولون بأن الظاهرتين الأساسيتين للدين، وهما السوداوية والتَّحوُّل الديني، هما بالأساس ظاهرتان من ظواهر المراهقة؛ وبالتالي

كلنا - بالتأكيد - على درايةٍ عامَّة بهذه الطريقة في الانتقاص من حالات العقل التي ننفر منها بشدَّة. فكلنا يستخدمها - بدرجةٍ أو بأخرى - في نقد الأشخاص الذين نعتبر حالاتهم العقلية منهكةً ومُجْهَدةً بشدَّة. لكن عندما ينقد الآخرون رحلات أرواحنا الأكثر سموًا من خلال وصفها بأنها "لا شيء سوى" تعبيراتٍ عن استعداداتنا العضوية، نشعر بالإهانة والأذى؛ لأننا نعلم أنه ومهما كانت خصائص أجسادنا، فإن حالاتنا العقلية لها قيمتها الجوهرية باعتبارها تكشُّفات وتجلِّيات للحقيقة الحيَّة؛ ونرغب حينها في أن تُجبَر كل هذه الماديَّة الطبيَّة medical materialism على أن تمسك عليها لسانها وتلزم الصمت.

وتبدو الماديَّة الطبيَّة - في واقع الأمر - تسميةً جيدةً لنظام التفكير الساذج للغاية الذي نحن بصدده. إذ تحسم الماديَّة الطبيَّة أمر القديس بولس Saint Paul بتوصيف رؤيته على الطريق إلى دمشق بأنها نشاطٌ عصبيٌّ زائد في جزءٍ معطوبٍ من القشرة المخيَّة القذالية occipital cortex، إنه مصابٌ بالصَّرَع. وتقضي على القديسة تريزا Saint Teresa باعتبارها مصابةً بالهستيريا، والقديس فرنسيس الأسيزي Saint Francis of Assisi باعتباره مصابًا بتلف وراثيٍّ Hereditary Degeneration[4]. ويُعامل استياء جورج فوكس من زُيوف عصره، وتَوْقه للأصالة الروحيَّة بوصفه عَرَضًا لقولون مضطرب. أما نبرة صوت الكاتب الإسكتلندي توماس كارلايل (Carlyle Thomas (1795 - 1881 البائسة كنغماتِ أُرْغُن، فتُفَسَّر بأنها ناتجةٌ عن نزلة

متزامنتان مع تطوُّر الحياة الجنسية. هذه حجَّة يسهل الردُّ عليها بالآتي: حتى لو كان هذا التزامُن المذكور صحيحًا بإطلاقٍ كحقيقة (والأمر ليس كذلك)، فليست الحياة الجنسية وحدها هي التي تنشط في أثناء المراهقة، وإنما الحياة العقلية الأعلى بأسرها. وبالتالي يمكن للمرء أن يضع الأطروحة التالية: إن الاهتمام بالميكانيكا، والفيزياء، والكيمياء، والمنطق، والفلسفة، وعلم الاجتماع، الذي يبزغ في أثناء سنوات المراهقة بجانب الاهتمام بالشعر والدين، هو أيضًا مجرَّد انحراف للغريزة الجنسية. لكنها ستكون أطروحة سخيفة وغير معقولة بالمرَّة. وعلاوة على ذلك، لو أن حجَّة المزامنة هي التي ستحسم الأمور، فكيف سيكون العمل مع الحقيقة التالية: المرحلة العمرية الدينية بامتياز هي الشيخوخة، أي السنُّ التي تنقضي عندها فورة الحياة الجنسية وتصبح شيئًا من الماضي؟

إن الحقيقة الواضحة هنا هي التالي: لكي نتمكَّن من تأويل الدين وتفسيره، يجب على المرء في النهاية النظر إلى المحتوى المباشر للوعي الديني. وفي اللحظة التي يفعل فيها المرء ذلك، سيرى كيف أن محتوى الوعي الديني منفصلٌ على وجه الإجمال عن محتوى الوعي الجنسي. كل شيء متعلِّق بهذين الوعيين يختلف: الموضوعات والمِزاج والملكات المختصَّة والأفعال التي يحض كل منهما عليها. إن الانسجام الشامل مستحيلٌ ببساطة، وما نجده غالبًا هو الخصومة الكاملة والتضاد. فلو رَدَّ علينا المدافعون عن نظرية-الجنس بأن ما ذكرناه لا يؤثر بالمرة في أطروحتهم، وذلك كالآتي: من دون المواد الكميائية]الهرمونات[التي تفرزها الأعضاء الجنسية في الدم، لن يُغذى المخ بالقدر الذي يلزمه لكي يستمرَّ في أداء النشاطات الدينية، فسنقول لهم بأن هذا الافتراض الأخير قد يكون صحيحًا أو لا يكون؛ لكنه عديم النفع في كلتا الحالتين؛ إذ لا يمكننا أن نستنبط منه أية نتائج من شأنها مساعدتنا على تأويل معنى الدين أو قيمته. فوفقًا لمنطق هذا الافتراض، تعتمد الحياة الدينية على الطحال والبنكرياس والكليتين بنفس قدر اعتمادها على الجهاز التناسلي، وبذلك تفقد النظرية ككلٍّ فكرتها الأساسية وتتبخَّر مستحيلة إلى مجرَّد ادعاء عامٍّ ومبهمٍ حول اعتمادية العقل بطريقة ما على الجسد

(٤) مصطلح طبي قديم، لم يعد مستخدمًا اليوم، ويفيد عامَّة ضمور الأنسجة العصبية وتحلُّلها في جزءٍ من الدماغ بسبب مشكلة متعلِّقة بالجينات، وبالتالي متوارثة. وكانت تُعزى إليه نوبات الصَّرع. (المراجع)

معويَّة Gastro-duodenal catarrh. تقول المادية الطبية إن كلَّ هذه التَوَتُّرات العقلية، هي - إذا ما فتشنا عن أسبابها - مجرَّد حالات أُهْبة مرضيَّة diathesis (وفي الغالب تسمُّم ذاتي؛ أي تسمُّم من داخل الجسم، لا من خارجه)، ناتجة عن انحرافاتٍ في وظائف العديد من الغُدَدِ، والتي ستكتشفها الفسيولوجيا يومًا ما.

وحينما تُكْتَشَف هذه الانحرافات، سيظن أنصار الماديَّة الطبيَّة أن السلطة الروحيَّة لكل هذه الشخصيات البارزة قد قُوِّضَت بنجاح[5].

دعونا ننظر للمسألة من أوسع منظورٍ ممكنٍ. إن علم النفس الحديث، وبإيجاده أن الصلات النفسية-الجسدية الواضحة هي صلاتٌ صحيحة، يطرح هذه الفرضية المريحة: إن اعتماد الحالات العقلية على الأحوال الجسدية يجب أن يكون تامًّا ومطلقًا. وإذا ما تبنَّينا هذا الافتراض، فسنخلص - بالطبع - إلى أن ما تُشَدِّد عليه الماديَّة الطبية لا بدَّ أن يكون صحيحًا بصورةٍ عامَّة، إن لم يكن صحيحًا في كل التفاصيل: فالقديس بولس بالتأكيد أُصيب مرةً بحالةٍ شبيهة بالصَّرع، إن لم يكن بنوبةِ صَرَعٍ بالفعل؛ وجورج فوكس كان مصابًا بتلفٍ وراثيٍّ؛ وكارلايل كان - بلا شكٍّ - مصابًا بالتسمُّم الذاتيِّ من قِبل أحد أعضاء جسده، أيًّا كان هذا العضو، وهلمَّ جرًّا. لكني الآن أسألكم، كيف يمكن لهذا الوصف الوجوديِّ لوقائع التاريخ العقليِّ الحكمُ - بطريقةٍ أو بأخرى - على الأهمية الروحية لهذه الوقائع؟ فوفقًا للفرضية العامَّة في علم النفس التي أشرنا للتَّوِّ إليها، لا توجد أيُّ حالة من حالاتنا العقلية - سواء كانت ساميةً أو وضيعةً، سليمةً أو مرضيةً - إلا وهي مشروطة ببعض العمليات العضوية. فالنظريات العلمية - هي الأخرى - مشروطة عضويًّا بنفس قدر الانفعالات الدينيَّة؛ ولو قُيِّضَ لنا فقط معرفة الوقائع على نحوٍ مُفصَّل بما فيه الكفاية، فسنرى - بلا شكٍّ - حينها أن "الكبد" يُحدِّد أقوال الملحد الصارم بنفس درجة الحسم التي يحدِّد بها أقوال الميثودي[6] Methodist المذنب، القَلِق على روحه. فعندما يغيِّر الكبدُ الدمَ الذي ينفذ إليه بطريقةٍ ما، نحصل على البنية العقليَّة للميثودي، وعندما يغيِّره بطريقةٍ أخرى نحصل على البنية العقليَّة للملحد. وهذا هو حال انخطافاتنا الصوفية وجفافنا الروحي؛ أشواقنا وتلهُّفاتنا، أسئلتنا ومعتقداتنا. فجميعها مُؤسَّس

---

(٥) لمثالٍ ممتاز على نمط الاستدلال الطب-مادي، انظر:
"Les Variétés du Type dévor", by Dr. Binet-Sanglé, in the Revue de l'Hypnotisme, XiV. 161.

(٦) طائفة مسيحية بروتستانتية ظهرت في القرن الثامن عشر في بريطانيا على يد رجل الدين المسيحي جون ويزلي، ثم انتشرت لاحقًا في المستعمرات البريطانية حتى الولايات المتحدة الأمريكية. انفصلت عن الكنيسة الأنجليكية رسميًّا عام ١٧٩٥ ونادت بإمكانية خلاص كل إنسان، مناقضة بذلك عقيدة اختيار الله المُسبق للناجين عند الكالفينية. وركَّزت على التأمل الداخلي والإيمان الروحاني المُنعكس في سلوكيات المؤمن باعتبارهما نظامًا للدين. (المترجمان)

عضويًّا بالقدر نفسه، سواء أكانت ذات مضامين دينية أم لا.

إذن، فإن توسُّلنا بالسببية العضوية لحالةٍ عقلية دينية بغرض تفنيد ادعائها بامتلاك قيمةٍ روحية سامية هو تصرُّف اعتباطيٌّ وغير منطقيٍّ بالمرة، ما لم يكن المرء بالفعل قد طوَّر مسبقًا نظرية نفسية-جسدية ما تربط القيم الروحية بشكل عامٍّ بأنواعٍ محدَّدة من التغيير الفسيولوجي. وإلا، فلن يمكن لأفكارنا ولا مشاعرنا، ولا حتى مذاهبنا العلمية، ولا حتى كفرنا - الاحتفاظ بأيِّ قيمةٍ بوصفها تكشُّفات وتجليات للحقيقة؛ وذلك لأنها كلها ومن دون استثناء تنجم - في الوقت نفسه - عن الحالة الجسدية لصاحبها.

ليس ثَمَّة حاجة للقول بأن الماديَّة الطبية لا تؤدي بنا - في حقيقة الأمر - إلى مثل هذا الاستنتاج الشكوكيِّ الشامل. فالماديَّة الطبية متأكِّدة - تمامًا كتأكُّد أي رجلٍ بسيطٍ - من أن بعض الحالات العقلية أسمى جُوَّانيًّا من الحالات الأخرى، وتكشف لنا المزيد من الحقيقة، وفي تأكُّدها هذا تستخدم المادية الطبية ببساطة حكمًا روحيًّا عاديًّا. وذلك بما أنها لا تمتلك نظريةً فسيولوجيةً عن إنتاج تلك الحالات التي تراها أسمى من غيرها، يمكن بواسطتها اعتماد هذه الحالات والتصديق على جدارتها؛ وبالتالي فإن محاولتها للتشكيك في الحالات العقلية التي لا تعجبها والطعن فيها من خلال ربطها - على نحوٍ مبهمٍ - بالأعصاب والكبد، وربطها بأسماء تشير ضمنيًّا إلى الأمراض والمعاناة الجسدية؛ هو أمر غير منطقيٍّ وغير متسقٍ تمامًا.

دعونا نكن منصفين في هذه المسألة برمتها وصريحين تمامًا مع أنفسنا ومع الحقائق. عندما نرى أن حالاتٍ عقليَّة معيَّنة تسمو على الأخرى، فهل يكون ذلك بسبب ما نعرفه بخصوص سوابقها وأصولها العضوية؟ بالطبع لا! نراها كذلك دومًا لسببين مغايريَن بالكلية: إمَّا لأننا نستحسنها مباشرة، وإمَّا لاعتقادنا بأنها ستعود على حياتنا بمنافع مهمَّة. فعندما نتكلَّم باستخفافٍ عن "خطرفات الحمى" فمن المؤكَّد أن ارتفاع درجة الحرارة ليس هو بحدِّ ذاته أساس استخفافنا؛ فليس لدينا من المعرفة ما يكفي لإنكار الآتي: قد تكون درجة حرارة 103 أو 104 فهرنهايت مناسبة أكثر للحقائق كي تنبت وتترعرع، مقارنة بدرجة حرارة الدم العادية: 97 أو 98 فهرنهايت. إن أساس استخفافنا هو كون هذه الخطرفات مكروهةً أو لعدم قدرتها على الصمود أمام انتقادات ساعة النقاهة والعافية. كذلك عندما نشيد بالأفكار التي تأتينا في حالة العافية، فإن عمليات الأيض الخاصَّة بتلك الحالة الصحيَّة الجيدة لا يكون لها أية علاقةٍ بتحديد حكمنا هذا. وفي حقيقة الأمر، لا نعرف أيَّ شيء - تقريبًا - عن تلك

العمليات. إن سمة السعادة الجُوَّانية في الأفكار هي التي تدمغها بطابع الأفكار الجيدة، وإلا فإن اتساقها مع آرائنا الأخرى وصالحيتها لخدمة احتياجاتنا هما ما يجعلانا نحكم عليها بأنها أفكارٌ صحيحة.

لكن المعيار الأكثر داخلية [الجوَّاني] والمعيار الأكثر خارجية [البرَّاني] من هذين المعيارين لا يجتمعان معًا على الدوام. إن السعادة الجُوَّانية والصلاحية للخدمة لا يتوافقان دائمًا. فما يمنحنا مباشرة أقصى "شعور جيد"، لا يكون دائمًا هو الأكثر "صوابًا"، عندما يُحكم عليه من طرف باقي التجربة. والفرق بين فيليب المخمور وفيليب المُفيق، هو المثال الكلاسيكيُّ للبرهنة على ذلك. فلو كان مجرَّد "الإحساس بالسعادة" هو الحَكَم، فستكون حالة السُكْر هي التجربة الإنسانية الأكثر صوابًا. لكن تجليات السُكر، ومهما كانت مُشبِعةً بالفعل في لحظتها، متضمنة في تجربةٍ ترفض دعمها وتصويبها ولو لبرهة من الزمن. ونتيجة هذا التضارب بين المعيارين هي حالة عدم اليقين التي تهيمن على الكثير من أحكامنا الروحية. نعم، هناك لحظات من التجربة الوجدانية والصوفية mystical - التي سنسمع عنها الكثير لاحقًا - تحمل معها - عندما تأتي للمرء - إحساسًا هائلًا بسلطتها الجُوَّانية وبالاستنارة؛ ولكنها نادرًا ما تأتي، كما أنها لا تأتي لكلِّ أحد؛ وعندما تأتي، يكون كلُّ ما سواها في حياتنا إمَّا لا يمتُّ لها بصلة وإمَّا يميل إلى معارضتها وتكذيبها أكثر من ميله إلى دعمها وتوكيدها. وفي هذه الحالات، يُؤثِر بعض الأشخاص اتِّباع ما تمليه هذه اللحظة، بينما يؤثِر البعض الآخر اتِّباع ما يمليه الرأي العادي. ومن هنا ينشأ الخلاف الحزين بين الكثير من الأحكام الروحية للبشر؛ وهو خلاف سنوضِّحه بالقدر الكافي قبل انتهاء هذه المحاضرات.

ولكنه خلافٌ لا يمكن حلُّه أبدًا بواسطة أي فحصٍ طبيٍّ مجرَّد. ويمكننا رؤية مثالٍ جيدٍ على استحالة التمسُّك الصارم بالفحوص الطبية في نظرية التفسير المَرَضِي للعبقرية التي روَّجها عدَّة مؤلفين مؤخرًا. يقول الدكتور موروMoreau : "العبقرية أحد فروع شجرة الاضطرابات العصبية". ويقول الدكتور لومبروزو Lombroso: "العبقرية هي أحد أعراض التلف الوراثي من النوع الشبيه بالصَّرع، وترتبط بالجنون المعنوي[7] Moral insanity". ويكتب السيد

(٧) مصطلح قديم في الطب النفسي، سكَّه الطبيب البريطاني جيمس كاولز بريتشارد James Cowles Prichard في عام ١٨٥٣، لوصف حالة المريض الذي لا يعاني من أية اضطراباتٍ على مستوى التفكير (ضلالات أو هلاوس)، ولكنه يعاني من اضطرابات في المزاج والمشاعر والعادات والسلوكيات. يعتبر هذا المصطلح هو الاسم التاريخي لما نسميه الآن بالسايكوباث psychopath أو السوشيوباث sociopath، أو باضطراب الشخصية المعادية للمجتمع antisocial personality disorder. (المراجع)

جرت العادة أن يُتَرجم هذا المصطلح إلى "الجنون الأخلاقي"، والحقيقة أنها ترجمة خاطئة؛ لأن كلمة Moral في القرن التاسع عشر كان لها معنيان: المعنوي الوجداني والأخلاقي. والمقصود هنا ليس المعنى الأخلاقي، بل المعنى المعنوي الوجداني.

نيسبيت Nisbet: "متى كانت حياة الشخص شهيرةً بالقدر الكافي ووقائعها مسجَّلة بقدر كافٍ من الإحاطة يسمح لها بأن تكون موضوعًا لدراسة مفيدة، فإنه حتمًا سيُصَنَّف ضمن الفئة المَرَضِيَّة . . . ومن الجدير بالذكر أنه - وكقاعدةٍ عامَّة - كلما زادت العبقرية، زاد الخلل العقليُّ"[8].

والآن، بعدما نجح هؤلاء المؤلفون - بالقدر الذي يرضيهم - في إثبات أن أعمال العبقري هي ثمار المرض، فهل يمكنهم أن يتسقوا مع أنفسهم ويبادروا على الفور إلى تفنيد قيمة هذه الثمار؟ هل يمكنهم استنباط حُكْم روحيٍّ جديد من مذهبهم الجديد في الشروط الوجودية؟ هل يمكنهم منعنا صراحةً من الإعجاب بمنتجات العبقرية من الآن فصاعدًا؟ ويقولون صراحةً إن الشخص المعتلَّ عصبيًّا لا يمكنه أبدًا أن يكون كاشفًا لحقيقةٍ جديدة؟

بالطبع لا! فغرائزهم الروحية الفورية قوية للغاية بالنسبة إليهم هنا، لدرجة أنها تصمد أمام الاستنتاجات، التي يتعيَّن على المادية الطبية - حبًّا في الاتساق المنطقيِّ - أن تكون مستعدَّةً تمامًا للوصول إليها. لقد سعى أحد أتباع هذه المدرسة جاهدًا بالفعل إلى تفنيد قيمة أعمال العبقرية كليًّا (مثل أعمال الفن المعاصر تحديدًا، التي يعجز عن الاستمتاع بها، مثل الكثيرين غيره) باستخدام حججٍ طبيَّة[9]. لكن في الغالب ظلَّت أصالة التحف الفنية وقيمتها غير مشكوكٍ في أمرها؛ وهذا الهجوم الطبي إمَّا أنه اقتصر في نقده للأعمال الفنية على تلك الأعمال العلمانية التي يقرُّ الجميع بأنها شاذةٌ وغريبةٌ على نحو جوهري، وإمَّا تَوجَّه بالنقد حصرًا إلى المظاهر والتعبيرات الدينيَّة. لقد كانت هذه المظاهر الدينيَّة مستهجَنَةً بالفعل؛ لأن الناقد ينفر منها على أساس جُوَّانيٍّ أو روحيٍّ، وليس على أساس طبيٍّ.

لكن فيما يخص العلوم الطبيعية والفنون الصناعية، فلم يخطر أبدًا ببال أحدٍ دحض الآراء المتداولة فيها عن طريق إظهار الطبيعة العُصابية لصاحبها. فالآراء تُخْتَبَر هنا دائمًا بواسطة المنطق والتجربة، بغضِّ النظر عن النمط العصبي لصاحبها. وينبغي ألَّا يكون الأمر على خلاف ذلك في حالة الآراء الدينيَّة. فقيمة الآراء الدينيَّة لا يمكن التحقُّق منها إلا بواسطة أحكامٍ روحيَّة

انظر:
Jan Verplaetse, Localizing the Moral Sense: Neuroscience and the Search for the Cerebral Seat of Morality, 1800-1930, (Springer, 2009, p. 193).
(المترجمان).

(8) J. F. NISBET: The Insanity of Genius, 3d ed., London, 1893, pp. xvi, xxiv.

(٩) ماكس نوردو MAX NORDAU (١٨٤٩ - ١٩٢٣) في كتابه الضخم بعنوان: "التلف Degenration".

تفصل فيها مباشرة، وهي أحكام تستند في المقام الأول على شعورنا الفوري حيالها، وتستند في المقام الثاني على صِلاتها التجريبية بمتطلباتنا الأخلاقية وببقية الأشياء التي نعتقد في صحتها.

وباختصار، فإن المعايير الوحيدة المتاحة هي **الاستنارة الفورية** Immediate luminousness، و**المعقولية الفلسفية** philosophical reasonableness، و**العون الأخلاقي** moral helpfulness. قد تكون القديسة تريزا امتلكت جهازًا عصبيًّا مستقرًّا كما لو كان الجهاز العصبي للبقرة الأكثر هدوءًا من بين البقر؛ ولكن ذلك لن ينقذ لاهوتها إذا ما حكمنا عليه بواسطة هذه المعايير وتبيَّن أنه جديرٌ بالازدراء. في المقابل، إذا صمد لاهوتها أمام هذه المعايير، فلن يؤثر في ذلك كم كانت القديسة تريزا هستيرية أو غير متزنة عصبيًّا عندما كانت بيننا على هذه الأرض.

وهكذا ترون أننا - من حيث الجوهر - مضطرون للعودة إلى المبادئ العامَّة التي لم تنفك الفلسفة التجريبية تشدِّد على ضرورة الاسترشاد بها في بحثنا عن الحقيقة. لقد سعت الفلسفات الدوغمائية إلى وضع اختباراتٍ للحقيقة من شأنها أن تغنينا عن التماس المستقبل. إن الدوغمائيين المتفلسفين ليحلمون بعلامةٍ ما مباشرة، بملاحظتها يمكننا تحصين أنفسنا على الفور وبشكل مطلق - راهنًا وإلى الأبد - من جميع الأخطاء. ومن الواضح أن أصل الحقيقة من الممكن أن يكون معيارًا خليقًا بالثناء كالمعايير الثلاثة آنفة الذكر، فقط إذا كان من الممكن التفريقُ بين الأصول المختلفة للحقيقة وَفْقَ وجهة النظر هذه. فتاريخ الآراء الدوغمائية يبيِّن أن الأصل كان اختبارًا مفضلًا للحقيقة دومًا: أصل في الحدس الفوري؛ وفي السلطة البابوية؛ وفي الوحي الخارق للطبيعة، سواء بواسطة الرؤية أو السماع أو الانطباع الذي لا يمكن تفسيره؛ وفي المَسِّ من قِبل الأرواح العليا، الذي يُعرب عن نفسه في صورة نبوءة وإنذار؛ وفي النطق التلقائي عمومًا - وكل هذه الأصول كانت تُعتبر بمثابة ضماناتٍ لحقيقة الآراء المتعاقبة التي نجدها مُمثَّلةً في التاريخ الديني. وبالتالي، ليس الماديون الطبيون سوى ثُلَّةٍ من الدوغمائيين المتأخرين، الذين يقلبون الطاولة على أسلافهم بحِنكة، عن طريق استخدام معيار الأصل بطريقةٍ تقويضيَّة، بدلًا من الطريقة الإثباتيَّة.

الحالة الوحيدة التي ستجد فيها حديثهم عن الأصل المَرَضِي مؤثرًا، هي الحالة التي يتوسل فيها المخالف بالأصل الخارق للطبيعة، ولا يكون على طاولة النقاش أيُّ حجَّة أخرى سوى حجَّة الأصل. ولكن حجَّة الأصل نادرًا ما تُستخدم وحدها؛ إذ من الواضح للغاية أنها حجَّة غير كافية بحدِّ ذاتها. فمثلًا، قد يكون الدكتور ماودسلي Maudsley هو أذكى مُفَنِّدِي

فكرة الدين الخارق للطبيعة على أساس حجَّة الأصل؛ إلا أنه يجد نفسه مضطرًا إلى أن يكتب:

"بأي حقٍّ نعتقد أن الطبيعة مُلزَمةٌ بأن تقوم بعملها بواسطة العقول الكاملة فحسب؟ فالطبيعة قد تجد في عقلٍ ناقصٍ أداةً أكثر ملاءمةً لإنجاز غرضٍ معيَّن. فقط العمل الذي أُنجز، والخاصية الموجودة في العامل التي أُنجز العمل بواسطتها - هما ما له أهمية؛ فقد لا يمثِّل مشكلة كبيرة من وجهة نظر كونية، أن يكون العامل معيوبًا للغاية في خصائصه الأخرى؛ كأن يكون منافقًا، أو زانيًا، أو غريب الأطوار، أو مختلًّا عقليًّا . . . وهكذا نعود مرةً أخرى إلى الملاذ القديم والأخير لتحصيل اليقين، وهو الاتفاق العام للبشر أو موافقة أهل العلم والاختصاص المؤهلين من بينهم"[10].

بمعنى آخر، إن المعيار النهائي عند ماودسلي للحكم على اعتقادٍ ما، ليس هو أصل هذا الاعتقاد؛ وإنما **الطريقة التي يعمل بها في المجمل**. وهذا هو معيارنا التجريبي الخاص، وهو أيضًا المعيار الذي أُجبر على استخدامه - في نهاية المطاف - أشدُّ المُصرِّين على الأصل الخارق للطبيعة. فمن بين الرؤى والرسائل الكشفية ثَمَّة ما هو سخيف على نحو جليٍّ للغاية، ومن بين حالات الغشية والنوبات التَّشَنُّجِيَّة ثَمَّة ما لا يعود بأدنى نفعٍ على السلوك أو الشخصية، بحيث لا يمكن بأي حالٍ من الأحوال الحكمُ عليها بأنها ذات أهمية فضلًا عن كونها إلهيةً. وفي تاريخ التصوُّف المسيحي كانت مشكلة التمييز بين الرسائل والتجارب التي يمكن اعتبارها بمثابة معجزات إلهية حقًّا، وبين غيرها التي يستطيع الشيطان بخبثه تزييفها، ومن ثَمَّ يجعل الشخص المتدين أقربَ للجحيم مما كان عليه قبل الدخول في هذه التجربة المزيفة - مشكلةً مستعصيةً على الحل، تتطلَّب كلَّ الحكمة والخِبرة الممكنة لدى أفضل قادة الضمير. ففي النهاية لن يسعفنا إلا معيارنا التجريبي: من ثمارهم تعرفونهم[11]، وليس من جذورهم. ورسالة الواعظ الأمريكي جوناثان إدواردز (Jonathan Edwards 1703 - 1758) حول المشاعر الدينيَّة "Treatise on Religious Affections" هي عملٌ مفصِّل لأطروحتنا هذه. إننا لا نستطيع الوصول إلى جذور فضيلة الإنسان، وليست المظاهر - أيًّا كانت - براهينَ معصومةً من الخطأ على نَيْلِ نعمة الرب. فممارستنا هي الدليل الوحيد الأكيد - حتى لأنفسنا - على كوننا مسيحيين حقًّا وصدقًا.

يقول إدواردز: "إذا أردنا الحكم على أنفسنا الآن، فبالتأكيد يجب أن نعتمد على الدليل

(10) H. MAUDSLEY: Natural Causes and Supernatural Seemings, 1886, pp. 257, 256.

(١١) انظر: متَّى ٧: ١٦. (المترجمان)

الـذي سيسـتخدمه قاضينـا الأعلى بشـكلٍ رئيـسٍ عندمـا نقـف أمامـه يـوم الحسـاب . . . لا توجـد أي نعمـةٍ لـروح الـربِّ لا تكـون الممارسـة المسـيحية هـي الدليـل الأشـد حسمًا على وجودهـا في أي مُعتنِـقٍ للديـن.... والدرجـة التـي تكـون بهـا تجربتنـا مُنتِجـةً للممارسـة هـي التـي تحـدِّد الدرجـة التـي تكـون بهـا تجربتنـا روحيـةً وإلهيـةً".

وبالقـدر نفسـه، يؤكِّـد الكتَّـاب الكاثوليـك على هـذا الأمـر أيضًـا. فالميـول الـخيِّرة التـي تخلفهـا الـرؤى وراءهـا، أو الأصـوات، أو أي نعمـة إلهيَّـة أخـرى ظاهـرة، هـي العلامـات الوحيـدة التـي يمكننـا التأكُّـد بواسـطتها مـن أن هـذه النِّعـم ليسـت مجـرَّد خـدعٍ شـيطانية. تقـول القديسـة تريـزا:

"]فالـرؤى الشـيطانية[مثـل النـوم المضطـرب الـذي بـدلًا مـن أن يعطـي المزيـد مـن القـوة إلى الـرأس، يتركـه أكثر إنهـاكًا، ولا تكـون نتيجـة مجـرَّد عمليـات الخيـال إلا إضعافًـا للـروح. فبـدلًا مـن الغـذاء والطاقـة، لا تجنـي الـروح إلا التعـب والغثيـان. في حين أن الـرؤى الإلهيـة الأصيلـة تمـدُّ الـروحَ بحصـادٍ مـن الغنـى الروحـيِّ لا يمكـن وصفـه، وبتجديـدٍ باهـرٍ للقـوة الجسـدية. أسـوق هـذه الأسـباب لأولئـك الذيـن كـثيرًا مـا اتهمـوا رؤاي بأنهـا مـن عمـل إبليـس عـدوِّ الـبشر، ومـن صنـع خيـالي ... لقـد أظهـرت لهـم الجواهـر التـي تركتْهـا اليـدُ الإلهيـة معـي: وهـي ميـولي الفعليـة. فـكلُّ مـن عرفنـي رأى أننـي قـد تـغيَّرت، وكاهـنُ اعترافي شـاهدٌ على هـذه الحقيقـة. هـذا التحسُّـن، الملمـوس في جميـع المناحـي، لم يكـن خفيًّـا؛ وإنمـا كان ظاهـرًا بـجلاءٍ أمـام أعين النـاس جميعًـا. أمـا بالنسـبة إليَّ فـكان مـن المسـتحيل عليَّ تصديـق أنـه لـو كان الشـيطان هـو مؤلِّـف رؤاي، كان سيسـتخدم - بغـرض إضلالي وسـوقي إلى الجحيـم - وسـائلَ مناقضـةً تمامًـا لمصالحِـهِ الخاصَّـة، كاجتثـاث رذائلي مـن جذورهـا، وملئـي بالشـجاعة الرجوليـة. وعليـه، فقـد رأيـت وبوضـوحٍ أن واحـدةً فحسـب مـن هـذه الـرؤى الإلهيـة كانـت كافيـةً تمامًـا لإثـرائي بـكل ذلـك الغِنـى"[12].

أخشى أن أكـون قـد جعلـت هـذا الاسـتطراد أطـولَ مما ينبغـي، وأن عـددًا أقـلَّ مـن الـكلمات كان ليبـدِّد عـدم الارتيـاح الـذي ربمـا قـد نشـأ عنـد بعضكـم عندمـا أعلنـت عـن برنامجـي المَـرَضِي. على أيـة حـال، مـن المـفترض أن تكونـوا جميعًـا الآن على اسـتعدادٍ للحُكـم على الحيـاة الدينيَّـة مـن خلال نتائجهـا بالتحديـد، وسـأفترض أن بُعْبُـعَ الأصـل المَـرَضِي لـن يُـروِّع تديُّنكـم وتقواكـم مـرةً أخـرى.

ومـع ذلـك، قـد تسـألونني: إذا كانـت نتائـج التجربـة الدينيَّـة هـي أسـاس تقييمنـا الروحـي

(12) Autobiography, ch. xxviii.

النهائي للظاهرة الدينيَّة، فلماذا ترهبنا من الأساس بدراسة وجودية موسَّعة لظروفها وأوضاعها؟ لماذا لا تترك الأسئلة المَرَضِيَّة خارج الموضوع ببساطة؟

سأجيب عن هذا بطريقتين: أولًا: إنه الفضول الذي لا يمكن كَبْتُه، والذي يقود المرءَ بشكل مستبدٍّ. وثانيًا: لأن الاعتبار في مبالغات شيءٍ ما وانحرافاته، وفي نظائره وبدائله وأكثر الأشياء شبهًا به في أماكن أخرى، من شأنه دومًا أن يقودنا إلى فهمٍ أفضل لأهمية هذا الشيء. ليس معنى ذلك أننا قد ندين الشيء كما أدنَّا بالجملة مُجانِسيه الأدنى منه. لكن، معناه أنه قد يمكننا من خلال المقارنة بينه وبينهم التثبُّت على نحوٍ أدقَّ من مزاياه، وأن نعرف في الوقت نفسه مخاطر الفساد المحدَّدة التي يمكن أن يكون عرضةً لها.

ولدى أوضاع الاختلال العقلي تلك الميزة؛ إذ تعزل عوامل مخصوصة من الحياة العقلية، وتمكِّننا من فحصها مباشرةً وبوضوحٍ، بمعزلٍ عن محيطها الاعتيادي الذي يغطي عليها عادةً. إنها تؤدي في عملية تشريح العقل الدورَ الذي يقوم به كلٌّ من المبضع والمجهر في عملية تشريح الجسد. فلكي نفهم شيئًا ما على نحوٍ صحيح، نحتاج إلى رؤيته خارج بيئته وداخلها، وإلى الإلمام بجميع تنويعاته. على هذا النحو، كانت دراسة الهلاوس hallucinations هي المفتاح بالنسبة إلى علماء النفس ليفهموا الإحساس الطبيعي، وكانت الأوهام illusions هي مفتاح الفهم الصحيح للإدراك الحسي[13]. وهكذا ألقت المُحثات المَرَضِيَّة morbid impulses، والتصوُّرات القهرية، أو ما يُسمَّى بـ"الأفكار المستبدَّة" fixed ideas - الضوءَ على سيكولوجيا الإرادة الطبيعية[14]. كما أدَّت الهواجس obssessions والضلالات delusions الخدمةَ نفسَها فيما يتعلَّق بفهم مَلكة الاعتقاد الطبيعية.

وعلى نحوٍ مماثل، قد أُضيئت طبيعة العبقرية بواسطة محاولات تصنيفها ضمن ظواهر الاعتلال النفسي، التي أتيتُ على ذكرها سابقًا. فحالات التأرجُح بين الجنون والعقلانية Borderland Insanity، وغرابة الأطوار Crankiness، والمزاج الجنوني Insane Temperament، وفقدان التوازن العقلي Loss of Mental Balance، والتلف النفسي Psychopathic Degeneration (حتى نستخدم عددًا قليلًا من المرادفات العديدة التي أُطلقت على العبقرية)؛ لها خصوصياتٌ ومتطلبات معيَّنة، والتي عندما تقترن بطبيعةٍ عقلية متفوِّقة عند شخصٍ ما،

(١٣) الهلوسة هي تجربة الإحساس بغير الموجود (رؤية أشياء غير موجودة أو سماع أصواتٍ غير موجودة، على سبيل المثال)، أما الوهم فهو هذا الشيء نفسه غير الموجود الذي يُدرك حسيًّا من خلال الهلوسة. (المراجع)

(١٤) هذه الأعراض هي أقرب ما يكون إلى ما يُعرف في الطب النفسي الحديث بـ Obsessive Compulsive Disorder (OCD))، أو الوسواس القهري كما هو مشهور عربيًّا. (المراجع)

تزيـد مـن احتماليـة بـروز هـذا الشـخص وتـأثيره في عصره، أكثر مما لـو كان مزاجـه أقـلَّ عُصابيـةً. ليـس هنـاك بالطبـع أيـة رابطـةٍ مخصوصـةٍ بين غرابـة الأطـوار بمـا هـي كذلـك والعقـل المتفـوِّق[15]، فمعظـم المـرضى النفسـيين لديهـم قـدراتٌ فكريـة ضعيفـة، والمتفوقـون عقليًّـا لديهـم أجهـزة عصبيـة طبيعيـة في أغلـب الأحـوال. ولكـن الطبـع العليـل نفسـيًّا - أيًّـا كانـت نوعيـة العقـل المُقترن بـه - غالبًـا مـا سـيجلب معـه الاندفـاعَ وسرعـة التهيُّـج. كذلـك، غالبًـا مـا يكـون الشـخص متقلِّـب الأطـوار cranky هشًّـا - مـن جهـة الانفعـال - بشـكل اسـتثنائيٍّ. كذلـك يكـون عرضـةً للأفـكار والهواجـس التـي تسـتبدُّ بالعقـل. كما تميـل تصوراتـه إلى أن تتحـول فوريًّـا إلى اعتقـاداتٍ وأفعـالٍ؛ وعندمـا تأتيـه فكـرةٌ جديـدة، لا يهـدأ حتـى يعلنهـا، أو "يجتهـد ليتخلَّـص منهـا" بطريقـةٍ أو بأخـرى. فالشـخص العـادي عندمـا يواجـه مسـألةً مزعجـةً يقـول في نفسـه: "مـا الـرأي الـذي ينبغـي اتخـاذه حيالهـا؟"، أمـا متقلِّـب الأطـوار فيقـول: "مـا الـذي يتـعيَّن عليَّ فعلـه حيالهـا؟". في الـسيرة الذاتيـة لتلـك المـرأة ذات الـروح السـامية، السـيدة آني بيزنـت Annie Besant (1847 - 1933)، قـرأت المقطـع التـالي: "الكـثير مـن النـاس يتمنَّـون الـخير لأي قضيـةٍ نبيلـة، ولكـنَّ القليـل جـدًّا مسـتعدون لبـذل أنفسـهم في سـبيلها، وأقـل منهـم مـن سـيخاطرون بـأي شيء لدعمهـا. (يجـب على شـخصٍ مـا أن يفعـل ذلـك، لكـن لماذا يكـون أنـا؟) هـي العبـارة التـي تتردَّد دومًـا على لسـان الدمـثين مـن ذوي الإرادة الضعيفـة. أمـا عبـارة (يجـب على شـخصٍ مـا أن يفعـل ذلـك، فـلماذا لا يكـون أنـا؟) فهـي بمثابـة صرخـة خـادمٍ مخلـصٍ للإنسـانية، يثـب بتلهُّـفٍ إلى الأمـام كي ينجـز مهمَّـةً يحفُّهـا الخطـر. وبين هـاتين الجملـتين تكْمُـن قـرون كاملـة مـن التطـوُّر الأخلاقـي". صحيـح، لكـن هنـاك المزيـد! فـبين هـاتين الجملـتين تكْمُـن أيضًـا المصائـر المختلفـة للرجـل العـادي الكسـول الـذي يـردِّد الجملـة الأولى، وللرجـل ذي الأطـوار المتقلِّبـة الـذي يـردِّد الجملـة الثانيـة. وهكـذا عندمـا يجتمـع العقـل المتفـوِّق مـع الطَّبـع المتقلِّـب - فـكما هـو حـال التباديـل والتوافيـق اللانهائيـة للمَلَـكَات البشريـة، لا منـاص مـن اجتماعـهما في أحيـانٍ كـثيرة - في نفـس الفـرد، يصبـح لدينـا أفضـل وضـعٍ ممكـن لإنتـاج هـذا النـوع مـن العبقريـة المؤثـرة التـي تُسـجَّل في معاجـم السِّـير. ومثـل هـؤلاء الرجـال العباقـرة لا يبقـون مجـرَّد ناقديـن وشراحٍ لأفكارهـم؛ وإنمـا - ولأنهـا تسـتبدُّ بهـم - يفرضونهـا فرضًـا على معاصريهـم، بغـضِّ النظـر عـن نتيجـة ذلـك، حسـنةً كانـت أم سـيئةً. وعندمـا يحتـجُّ السـادة لـومبروزو ونيسـبيت وآخـرون بالإحصائيـات للدفـاع عـن مفارقتهـم، يكـون مثـل هـؤلاء الرجـال هـم

(١٥) يبـدو أن العقـل المتفـوق، وكمـا بيَّـن ذلـك البروفيسـور بايـن Alexander Bain (١٨١٨ - ١٩٠٣) علـى نحـوٍ باهـر، لا يتألَّـف مـن شـيءٍ أكثـر مـن تألُّفـه مـن تطـوُّر كبيـر فـي ملكـة التربيـط الذهنـي (بيـن الأشـياء: الأفـكار، المفاهيـم، الأحـداث...) علـى أسـاس التشـابُه.

مـن يؤخـذون في الحسـبان.

لنتحـوَّل الآن إلى الظواهـر الدينيَّـة، خُـذْ مـثلًا السـوداويَّة التـي تُشَـكِّل - كما سنرى لاحقًـا - لحظـةً أساسـيةً في كلِّ تطـوُّر دينـيٍّ كامـل، والسـعادة التـي يمنحهـا الاعتقـاد الدينـي المتحقِّـق، وحـالات الاسـتبصار في الحقيقـة الشـبيهة بالغشـيَّة المُخبَر عنهـا في جميـع المذاهـب الصوفيـة[16]. وسـتجد أن كلَّ واحـدةٍ منهـا هـي حالـةٌ خاصَّـة لنـوعٍ أوسـع نطاقًـا مـن أنـواع التجربـة البشريـة. فالسـوداويَّة الدينيَّـة - مـهما كانـت خصوصياتهـا التـي تُعتبر دينيـةً - هـي على أيـة حـالٍ سـوداويَّة، والسـعادة الدينيَّـة هـي على أيـة حـالٍ شـعور بالسـعادة، والغشـيَّة الدينيَّـة هـي غشـيان في نهايـة المطـاف. وحيـنما ننبـذ الفكـرة السـخيفة التـي مفادُهـا أننـا ندمـر قيمـة الشيء حـالما نصنفـه إلى جانـب أشـياء أخـرى، أو حـالما نُظهـر أصلـه، وحيـنما نتفـق على الاستمسـاك بالنتائـج التجريبيـة للظاهـرة وبطبيعتهـا الداخليـة، باعتبارهـا معيـارًا للحكـم على قيمتهـا؛ مـن يسـعه إنـكار أننـا سـنتمكَّن - على الأرجـح - مـن فهـم وتبيُّن الـدلالات المميـزة للسـوداويَّة الدينيَّـة والسـعادة الدينيَّـة والغشـيَّة الدينيَّـة، بشـكلٍ أفضـل بكـثير، إذا مـا قارناهـا على نحـوٍ شـامل ومعمَّـق قَـدر اسـتطاعتنا مـع التنويعـات الأخـرى للسـوداويَّة والسـعادة والغشـيان، مقارنـة بفهمنـا وتبيُّننـا لهـا إذا مـا أنكرنـا أن لهـا مكانًـا ضمـن تنويعـات التجربـة البشريَّـة الأعـم، وعاملناهـا كما لـو كانـت خـارج نظـام الطبيعـة بالكليَّـة؟

وآمـلُ أن يؤكِّـد لنـا مسـارُ هـذه المحـاضراتِ هـذا الافتراضَ. وفـيما يتعلَّـق بالأصـل المَرَضِي-النفسي للكـثير مـن الظواهـر الدينيَّـة، فلـن يكـون ذلـك مفاجئًـا أو مقلقًـا لنـا على الإطلاق، حتـى لـو كانـت هـذه الظواهـر مصدَّقًـا عليهـا مـن أعلى [مـن اللـه] بأنهـا أثمـنُ التجـارب البشريـة على الإطلاق. فلا يمكـن لأي تكويـن جسـديٍّ واحـدٍ أن يهـب صاحبَـهُ الحقيقـةَ كاملـةً. فمعظمنـا لديـه نـوع مـا مـن الضعـف، أو حتـى نـوع مـا مـن المـرض. لكـن ضعفنـا هـذا نفسـه يسـاعدنا بشـكل غير متوقَّـع. ففـي المـزاج المَـرَضِي، يكـون لدينـا الحـسُّ الانفعـالي الـذي هـو شرط **لا غنـى عنـه** للحـسِّ الأخلاقـي، ويكـون لدينـا الشـدَّة والنزعـة التأكيديـة التـي هـي جوهـر الحَميَّـة والحيويَّـة الأخلاقيـة العمليـة، ويكـون لدينـا شـغفٌ بالميتافيزيقـا والروحانيـات يدفـع باهتمامـات المـرء إلى خـارج حـدود العـالم الملمـوس. إذن، فـأي شيء طبيعـيٍّ أكثر مـن أن يقـود هـذا المِـزاجُ العصابيُّ صاحبَـهُ إلى أرض الحقيقـة الدينيَّـة، إلى زوايـا الكـون الخفيَّـة، تلـك التـي يحـرص نمـط الجهـاز العصبـي السـليم - القـوي المكين

(١٦) أحيلكم على نقدٍ للنظرية التي تربط العبقرية بالجنون في:
Psychological Review, ii. 287 (1895).

المختـال، الـذي يمضي وقتـه في التباهـي، ضاربًـا بكلتـا يديـه على صـدره، وداعيًـا الجميـع لتحسُّـس عـضلات ذراعـه، وفي شـكر الـربِّ على عـدم وجـود ولـو حتـى ليفـة عصبيَّـة واحـدة مريضـة فيـه - كلَّ الحـرص على إخفائهـا للأبـد عـن أعين أصحابـه، غير العصابـيين الـراضين عـن أنفسـهم؟

وعليـه، لـو كان يوجـد بالفعـل شيء مثـل الإلهـام مـن الملكـوت الأعلى، فـعلى الأرجـح أن الطبـع العصـابي هـو الـذي يتوفَّـر فيـه الشرط الرئيـس اللازم لاسـتقبال هـذا الإلهـام. وعنـد هـذا الحـد، أعتقـد أنـه قـد حـان الوقـت لكي أتوقَّـف عـن الحديـث عـن مسـألة الديـن والعصـاب.

يشـكِّل مجمـوع الظواهـر التابعـة، المَرَضيـة وغير المَرَضيـة، التـي يتـعيَّن مقارنـة شـتَّى الظواهـر الدينيَّـة بهـا حتـى يتسـنَّى لنـا فهمهـا على نحـو أفضـل، مـا يُسـمَّى في اصـطلاح البيداغوجيـا [علـوم التدريـس والتربيـة] بـ"الكتلـة الاسـتيعابية"[17] The Apperceiving Mass. والجِـدَّة الوحيـدة التـي أتخيَّـل وجودهـا في هـذه المحـاضرات تكْمُـن في اتسـاع الكتلـة الاسـتيعابيَّة التـي تفهـم الظواهـر الدينيَّـة مـن خلالهـا. وبذلـك قـد أنجـح في مناقشـة التجـارب الدينيَّـة في سـياقٍ أوسـع مـن السـياق المعتـاد في المقـررات الجامعيَّـة.

(١٧) يستعير ويليام جيمس هذا المفهوم من الفيلسوف الألماني يوهان فريدريك هربارت Johann Friedrich Herbart (١٧٧٦ - ١٨٤١)، فيقول: "كل انطباع يأتي من الخارج - سواء كان جملة نسمعها، أو شيئًا نراه، أو رائحة نشمها - بمجرَّد أن يدخل وعينا يتحرك في اتجاهٍ ما، ويدخل في علاقاتٍ ارتباطية مع ما هو موجود هناك بالفعل، وفي الأخير ينتج ما نسميه رد فعلنا. ما يحدِّد هذه الصلات والعلاقات هي تجاربنا السابقة ونوعية الانطباع الحاضر ... إن هذه الطريقة في التناول الجُوَّاني للأشياء هي عملية الإدراك، والمفاهيم التي يلاقيها ذلك الانطباع الحاضر، والتي تستوعبه، يسميها هربارت (الكتلة الاستيعابية)". (Talks to Teachers on Psychology, ١٨٩٩, ch. XIV). (المترجمان)

مركز نهوض للدراسات والبحوث مركز بحثي يُعنى بقضايا الفكر والواقع، ويرفد الساحة الثقافية العربيّة بمعالجات بحثيّة رصينة لتجديد النظر التاريخي والسياسي والاجتماعي والديني، بما يخدم قضيّة «النهوض» المنشود.

يسعى المركز إلى توسيع فضاء الحوار الحرّ وتعميق النقاشات الفكريّة الجادّة، ملتزماً بأخلاق الاختلاف الإنساني وقيم البحث العلمي الرصين. ويجتهد في استشكال قضايا وأسئلة النهضة الحضارية والعمل على الإجابة عنها، مستثمراً في ذلك مستجدات المعارف العلمية والاجتماعيّة، على نحوٍ يصل بين مضامين الوحيّ وتصوّرات العلوم الإنسانية، ويكفل التفاعل الخلّاق بينهما.

المركز هو أحد المؤسسات التابعة لوقف نهوض لدراسات التنمية، وهو وقف عائلي (عائلة الزميع) تأسس في الكويت بتاريخ الخامس من يونيو من عام 1996م، ويسعى إلى المساهمة في تطوير الخطاب الفكري والثقافي والتنموي بدفعه إلى آفاق ومساحاتٍ جديدة.

مركز نهوض
للدراسات والبحوث

جميع الحقوق محفوظة 2026

All rights reserved © 2026